

كتاب العدد

تكامُل عادات العقل والمحافظة عليها

مراجعة،

د. ياسر عبدالله الحيلواني

قسم علم النفس التربوي

كلية التربية - جامعة الكويت

قدمت مدارس الظهران الأهلية في المملكة العربية السعودية ترجمة لكتاب تكامل عادات العقل والمحافظة عليها، تحرير آرثر ل. كوستا وبيننا كاليك Arthur L. Costa and Bena Kallick. وقد شكل هذا الكتاب الحلقة الأخيرة لسلسلة كتب قيمة مكونة من أربعة أجزاء. وتأتي أهمية هذا الكتاب بالإضافة إلى الكتب الثلاثة الأخرى من كونه يركز على عادات العقل Habits of Mind في تحسين عملية التعليم والتعلم وتمكين الطلبة والمدرسين من التعلم المستمر ومواجهة تحديات الحياة اليومية داخل المدرسة وخارجها. فقد ذكر هذا الكتاب أن هنالك ستة عشر (16) نوعاً من السلوكيات الذكية المسماة بعادات العقل الضرورية لنجاح الفرد في حياته الأكاديمية والعملية والاجتماعية، وتشتمل هذه العادات على مهارات مثل المثابرة، والتحكم بالتهور، والإصغاء بتفهم وتعاطف، والتفكير بمرونة، والتفكير حول التفكير، والكفاح من أجل الدقة، والخلق والتصور والابتكار، والتساؤل وطرح المشكلات، وتطبيق المعارف الماضية على أوضاع جديدة، والتفكير التبادلي. ويبين هذا الكتاب في البداية أن هذه العادات تشكل تحدياً لمفهوم الذكاء. فقد اعتبر هذا الكتاب أن الذكاء قدرة تحت الطلب، مشيراً بذلك إلى ما يستطيع الفرد القيام به بخصوص الشيء المطلوب إنجازه (مثل ممارسة الاستدلال والاستنتاج وإعطاء معانٍ لكلمات معينة). أما عادات العقل فهي سلوكيات تعمل على إبقاء الأفراد متيقظين حتى يعملوا بكفاءة ويتم إرشادهم إلى أماكن القصور في عملية التفكير لديهم. بمعنى آخر تعتبر عادات العقل السلوكيات الذكية التي يستخدمها الأفراد بشكل يومي لحل المشكلات ضمن وسط وكم هائل من المثيرات المتواصلة والمعقدة، ومن هنا تأتي الحاجة إلى مثل هذه العادات وطرق استخدامها بشكل سليم.

يشير مفهوم العادة، كما ذكره هذا الكتاب، إلى أن سلوكاً أو مهارة معينة أصبحت روتينية، أما استخدامها من قبل العقل بشكل سليم فيعتبر أمراً مختلفاً، على سبيل المثال تعتبر عادة المثابرة شيئاً روتينياً عند البعض إلا أن ممارستها في الزمان والمكان المناسبين يمكن أن تتم بشكل خاطئ، وحدد هذا الكتاب أن نقطة البداية في تدريس واستخدام عادات العقل يجب أن تبدأ في المدارس لخلق ثقافة تعليمية تؤدي في النهاية لبناء مجتمع متيقظ ومتنبه ومهتم بكيفية إنتاج المعرفة وكيفية التعامل معها. وقد طرح هذا الكتاب شعاراً جديداً يدل على الفلسفة الجديدة للتربية والتعليم ألا وهو «تنمية عادات العقل لدى الأفراد»، ولكي يتم ذلك أكد الكتاب على ضرورة تكرار الفرص المتاحة لتعلم هذه العادات ولمدة زمنية طويلة حتى يكتسبها الأفراد ويطبّقونها بشكل صحيح. على سبيل المثال يتحسن السلوك عندما يمارس الفرد بشكل تلقائي عادة التحكم بالتهور بحيث تصبح هذه الممارسة غير مستهلكة للكثير من الجهد، مما يتيح ذلك للفرد التفكير بعواقب الأمور والحصول على أفضل النتائج الممكنة.

يتكون كتاب «تكامُل عادات العقل والمحافظة عليها» من سبعة (7) فصول بالإضافة إلى ملحق لتقييم التقدم الذي تحرزه المدرسة تجاه خلق ثقافة تعليمية مفروسة في عادات العقل.. يتناول الفصل الأول وصفاً لدور المدارس في تعزيز عادات العقل ومقدمة لسبعة مؤشرات يمكن استخدامها من قبل المدارس الراغبة في أن تصف نفسها بمدارس «بيوت العقل»، حيث يكون التركيز في هذه البيوت على تقييم العملية التي تهدف إلى جعل الطلبة أكثر وعياً وتأملاً وكفاءة ومرونة وقابلية لحل المشكلات.

يتحدث الفصل الثاني بالتفصيل عن المؤشرات السبعة التي يمكن أن تستخدم لإنشاء «بيوت العقل»، المحتضنة في داخلها جميع عادات العقل. تشتمل هذه المؤشرات على وجود رؤية ونتائج

وأهداف مشتركة ومنهاج وتدريس وتقييم وثقافة مدرسية واتصال وتعاون وقيادة وتعليم مستمر، ويشير هذا الفصل إلى أن عادات العقل تعمل كنقطة ارتكاز للمناهج وأساس لثقافة المدرسة ومجتمعها بحيث تصبح القيمة الأساسية السائدة في المدرسة هي تطوير عادات العقل وممارستها من قبل الطلبة والمدرسين.

يتطرق الفصل الثالث إلى عملية إيجاد رؤية للمدرسة وتحويل هذه الرؤية إلى ثقافة وممارسة من خلال أربعة (4) طرق هي القيادة الموزعة، والحوار المفتوح والصادق، والتدريب المعرفي، وتنمية العاملين.

يسرد الفصل الرابع كيفية غرس عادات العقل في ثقافة المدرسة من خلال وضع أمثلة من الميدان ابتداء من النهج والتنفيذ وانتهاء بالنتائج والتغلب على العقبات.

أما الفصل الخامس فيناقش كل واحدة من المؤشرات السبعة المذكورة في الفصلين الأول والثاني وكيفية تطبيقها على أرض الواقع، من خلال الإشارة إلى تجارب ميدانية قامت بها بعض المدارس والأفراد الممارسين لعادات العقل.

ولضمان الاستمرارية في ممارسة وتطوير عادات العقل قدم آرثر كوستا وبيننا كاليك في الفصل السادس اقتراحات من شأنها دعم حدوث تغيير واعي ودائم عند الطلبة والمدرسين في كافة المجالات، وتشتمل هذه الاقتراحات على إعطاء الوقت الكافي لممارسة هذه العادات، وعمل البحوث الإجرائية لأغراض تقييم وتجويد الممارسة ومن ثم تعديل هذه العادات من دمج وإضافة حتى يتم تقديمها بطريقة مثلى للطلبة طوال فترة تعلمهم، ابتداء من المرحلة الابتدائية وانتهاء بالمرحلة الثانوية. ولتحقيق هذه الغاية أكد هذا الكتاب على ضرورة تنوير المعلمين الموجودين في الميدان والمعلمين المستجدين بهذه الثقافة والدور الجديد للمدرسة في جعل «عادات العقل» المحور الأساسي للعملية التعليمية التعلمية.

وقد تضمن الفصل السابع والأخير في هذا الكتاب قائمة طويلة من الاقتراحات والاستراتيجيات التي يمكن الاستفادة منها في تشجيع وزيادة استخدام عادات العقل في الصفوف الدراسية والمدارس والمجتمعات.

يبدو جلياً أن هذا الكتاب يقدم ثروة من المعلومات النظرية والعملية للمهتمين من مسؤولين ومديرين ومدرسين للقيام بنقله نوعية حول النهوض بمستوى العملية التعليمية التعلمية وتجويدها من خلال جعل المدرسة «بيتاً للعقل». ولكي يحصل القارئ على الإفادة القصوى من هذا الكتاب يفضل أولاً قراءة الجزء الأول بعنوان استكشاف وتقصي عادات العقل، والجزء الثاني بعنوان تفعيل وإشغال عادات العقل، وأخيراً الجزء الثالث بعنوان تقييم عادات العقل وإعداد تقارير عنها وذلك قبل قراءة الجزء الرابع الذي تمت مراجعته هنا.

إن القارئ لهذا الكتاب ليقدر الجهد الكبير الذي قام به كل من آرثر كوستا وبيننا كاليك عندما يدرك أن المعلومات التي وضعها أمامه جاءت من عملية صهر لمعرفة موزعة في روايد علمية عدة والتي منها نظرية العقل Theory of Mind، والتفكير أو التفكير حول التفكير Metacognition، وعلم النفس المعرفي Cognitive Psychology، والإرشاد النفسي Counseling Psychology، وعلم النفس الاجتماعي Social Psychology، وحقل الموهبة والتفوق Gifted and Talented، ويزيد تقدير القارئ لجهد هذين الباحثين عندما يلمس الإبداع في وضع السلوكيات الخاصة بعادات العقل ضمن إطار مفاهيمي ورؤية ورسالة وأهداف تعليمية.

إن عملية إعادة هيكلة دور المدرسة بهذا الشكل من أجل الحصول على طلبة بمواصفات معينة يعتبر صدى للجهود التي تبذلها مؤسسات التعليم العالي من الجامعات الأمريكية الراغبة في الحصول على خريجين بمواصفات معينة حول ثلاثة نواح هي المعرفة والمهارات والاتجاهات.

ويمكن القول إن المعرفة النظرية والعملية التي قدمها هذان الباحثان تصلح بشكل عام لتحويل أي مدرسة في منطقتنا العربية إلى «بيت للعقل»، وفي الختام هنالك ملاحظتان متعلقتان بترجمة هذا الكتاب أولاً عدم وضوح الترجمة في بعض أجزاء الكتاب وثانيهما عدم وضع المصطلحات الأصلية باللغة الإنجليزية بجانب ترجمتها باللغة العربية.